ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

# إسهامات الحافظ ابن كثيرفي النقد التاريخي من خلال كتابه البداية و النهاية

## " السيرة النبوية أنموذجا " ( ت : 774 هـ )

**الأستاذ محمد عيساوي**

**جامعة محمد بوضياف .المسيلة .**

**ملخص البحث باللغة العربية :**

يُعد كتاب البداية والنهاية للحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (701-774هـ) من الكتب الموسوعية الجامعة ؛ و التي حوت علوماً متنوعة من التاريخ ، والحديث ، والفقه ، والتفسير، والتراجم، وكان لعلم التاريخ وفُنَونه النصيب الأَوفر من ذلك، وقد ظهر فيه تطبيقات الحافظ ابن كثير في كيفية نقد التاريخ ،و من خلال ما سبق تم اختيار البحث حول إسهامات الحافظ ابن كثير في النقد التاريخي من خلال كتابه البداية و النهاية " السيرة النبوية أنموذجا ".

**ملخص المقال باللغة الإنجليزية :**

Hafiz Ibn Kathir's Method in Criticizing HISTORY

A study on Ibn Kathir's book

AL-Bidayah wa'an Nihayah

Section of the Prophet's biography

Al- Bidayah wa'an Nihayah " The Beginning and The End", of imam "Hafiz" Abn Alfida Imad Ad-Din Isma'il bin Kathir Al-Qurashi ALDemashqui)701-774 A.H/1300-1373a.d), was meant to be one of the most encyclobedic resources that bring together sciences varied from history, Hadith, Figh, Tafsir to biography.

The book B immensely devoted to the history as a science and the practical methods the writer invented to the history criticism.

Eventually, this study brings back "AL-bidayah wa'an Nihayah as a methodical and applicable thesis rather than-historical records, and to be entitled with:

"Hafiz Ibn Kathir's Method in Criticizing History Section of the Prophet's biography

**المقدمة :**

مرَّ جمع السيرة النبوية وتدوينها في المشرق الإسلامي بمراحل متعددة،و في كل مرحلة برز مجموعة من الرواة والكتاب، والمصنفين الذين تصدّوا للتأليف في هذا الفن ذي الصلة بسيرة المصطفى –صلى الله عليه و سلم- . ومن بين أبرز المراحل التي مر بها تدوين السيرة النبوية هي مرحلة القرن الثامن الهجري (14 م ) ؛ حيث شهد هذا الأخير ظهور مجموعة من العلماء المحققين الموسوعيين و من بينهم الحافظ ابن كثير الدِّمشقي (ت : 774 هـ)، والذين اتسموا بمكانتهم العلمية الرفيعة ، وعنايتهم بالحديث والأثر، وامتلاك الأدوات المنهجية والوعي النقدي ، مما أَدّى إلى تأهيلهم للقيام بجهد علمي متميز يتجاوز مجرد الجمع والتقميش إلى تمحيص و غربلة ما جُمع من روايات، وأخبار ، ومراجعتها ،وبناء فقه مستنبط من وقائع السيرة النبوية، وغير ذلك من ملامح الإسهام النوعي القَيِّم في مجال كتابة السيرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأتمّ التسليم.فما هي أبرز العوامل التي أدت إلى نبوغه و تميزه في مجال النقد التاريخي ؟ و ما هي أبرز إسهامات الحافظ ابن كثير في نقد متون روايات السيرة النبوية ؟ و ما هي المعايير التي احتكم إليها في تمحيص الروايات التاريخية ؟

**أولا : نبذة موجزة عن الحافظ ابن كثيرو عوامل تكوين شخصيته النقدية :**

يجدر بنا في البداية التطرق إلى ملامح المولد و النشأة للحافظ ابن كثير ، و أبرز العوامل التي أدت إلى بلورة شخصية النقدية الحديثية و التاريخية .

ففيما يتعلق باسمه فهو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن دَرْع القرشي، البصروي الدمشقي، الملقب بعماد الدين وكنيتُه أبو الفداء، واشتهر باسم جده[1]

و أما مولده ، فقد وُلد بقرية شرقي بُصرى من أعمال دمشق، تسمى (مَجْدَل القرية) [2] وهي في الأصل موطن أُمه، وذلك في سنة (701هـ) كما صرّح هو بذلك في تاريخه[3] ، وقد

عانى من اليتم منذ صغره حيث توفي والده سنة (703هـ)،و نشأ بدمشق[4]،وتتَلمَذَ الحافظ ابن كثير على عددٍ غير قليل من العلماء في علوم الشريعة المختلفة، إلاَّ أَن جملةً من شيوخه كان لهم الأثر البالغ في تكوين شخصيته العلمية، وقد كان منهم:

1- العلاَّمة كمال الدين ابن قاضي شهبة (ت726 هـ)[5].

2- شيخ الإسلام برهان الدين الفزاري (ت730هـ)[6].

3- الحافظ الكبير أبو الحجاج يوسف المزي (ت742هـ)[7].

4- الحافظ الناقد شمس الدين الذهبي (ت748هـ)[8].

5- العلامة أبي العباس ابن تيمية (ت728هـ)[9].

6- العلامة كمال الدين ابن الزملكاني (ت727هـ)[10].

7- الحافظ المؤرخ علم الدين البرزالي (ت738)[11].

فوصفه شيخه الذهبي بـ((الإمام الفقيه المفتي، المُحدث الأوحد البارع، ذي الفضائل))[12] وقال: ((له عناية بالرجال والمتون، والفقه، خرّج وناظر، وصنَّف وفسَّر وتقدَّم))[13]. وقال: ((يدري الفقه، ويفهم العربية والأصول، ويحفظ جملةً صالحة من المتون والتفسير والرجال وأحوالهم، سمع مني، وله حفظ ومعرفة))[14]، ونقل الحسيني: عن (المعجم المختص) للذهبي بأنه قال فيه: ((فقيه متقن ومحدِّث محقق، ومفسرٍ نقَّاد))[15].

وقال معاصره الحسيني: ((الشيخ الإمام العالم، الحافظ المفيد البارع... أفتى ودرَّس وناظر، وبرع في الفقيه والتفسير والنحو، وأَمعن النظر في الرجال والعلل))[16]، وقال عنه ابن حبيب الحلبي الدمشقي: ((إمام ذوي التسبيح والتهليل وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنَّف، وأطرب الاسماع بأقواله وشنَّف، وحدَّث وافاد، وطارت أوراق فتاواه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير))[17]. كما نقل تلميذه المؤرخ شهاب الدين ابن حجيَّ السعدي ( ت : 818 هـ )إقرار العلماء بمكانته العلمية فقال: ((وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وكان يستحضر شيئاً كثيراً من التفسير والتاريخ قليل النسيان، وكان فقيهاً جيد الفهم،... ما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه، إلا وأفدتُ منه))[18].

أما ابن تغري بردي مؤرخ القرن التاسع الشهير، فقد ذكره في كتابه ((المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي)) بألقاب كثرة منها: (الشيخ الإمام العلامة) وذكر بانه: (لازم الاشتغال ودَأَبَ وحَصَّل وكتب وبَرَع في الفقه والتفسير والحديث وأفتى ودرس إلى أن توفي)[19].

وما زال الاعتراف بمكانته العلمية متواصل في أوساط العلماء والباحثين، فقد أشاد بفضله ومكانته عدد من العلماء والباحثين المتأخرين، فقد لقبه الكتاني بـ ((المحدث المتقن البارع))[20]، ووصفه الشيخ العلامة أحمد محمد شاكر بقوله ((إمام عظيم من الأئمة الثقات المحققين))[21] ، واعتبره ((ثالث ثلاثة كان المسند-للإمام أحمد بن حنبل-كله على أطراف ألسنتهم وكانوا يعرفونه حقاً))[22] ، وعده الدكتور صلاح الدين المنجد من: (أعظم العلماء المسلمين الدمشقيين في الفقه والتفسير والحديث والتاريخ)[23].

و من المحطات التاريخية البارزة في حياة الحافظ ابن كثير ممارسته التدريس في الجامع الأموي بدمشق وفي المدرسة النورية وفي عدة مساجد في دمشق وتولى مشيخة دار الحديث الأشرفية كما مارس الإفتاء والخطابة[24]، هذا إلى جانب النشاط التأليفي الذي يعدُّ الظاهرة الأهم في حياة ابن كثير، حيث ألف وجمع العديد من المصنفات التي يذكر بعض الباحثين أنها تربو على (60) كتاباً. ومع كثرة مصنفاته إلا أن ما ناله من شهرة ومكانة إنما يرجع إلى كتابيه: "تفسير القرآن العظيم" و"البداية والنهاية".

وبعد حياة عامرة بالعلم والتأليف والإفتاء والتدريس، وافته المنية في يوم الخميس، الخامس عشر من شعبان سنة (774هـ) من الهجرة النبوية[25]، وشيعته دمشق في جِنازة مهيبة، ودفن بوصية منه بمقبرة الصوفية وقد رثاه بعض طلابه قائلاً[26]:

***لفقدك طلاب العلم تأسَّفوا وجادوا بدمع لا يبيد غزير***
***ولو مزجوا ماء المدامع بالدماء لكان قليلا فيك يا بن كثير***

وتكشف هذه الشواهد عن سعة علمه وتنوع ثقافته، فجعلته مقدماً على أقرانه، ومحط أنظار أهل العلم وإقرارهم بتقدمه في هذه الصناعة.

**ثانيا : ماهية النقد التاريخي و تعريف عام بكتاب البداية و النهاية :**

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

ينبغي تحديد دلالة مصطلح " النقد " و " التاريخ " في معاجم اللغة ، حتى يتسنى لنا فهم ماهية النقد التاريخي . فما هي دلالة كل واحد منهما على حدة ؟ و ما هو المقصود بالنقد التاريخي ؟

قال ابن فارس ( ت :395 هـ ) : "النُّون والقاف والدَّال أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إبراز شيء وبُروزه، من ذلك النَّقد في الحافر، وهو تقشُّرُهُ، والنَّقد في الضِّرس تكسُّره، وذلك بتكشف لِيطِه عنه، ومن الباب نَقد الدِّرهم، وذلك أن يُكْشَف عن حالِهِ في جَودته أو غير ذلك، ودرهم نَقْدٌ وَازِنٌ جيد، كأنه قد كُشف عن حاله فعُلم." [27] و من جانب آخر يحدد ابن منظور المقصود بالنقد ( ت : 711هـ ) فيقول : " ونَقَدَ الطّائِرُ الحَبَّ ينقُدهُ ، إذا كان يلْقُطُه واحداً واحداً، وما زال فلان يَنْقُدُ بصَرَه إلى الشيء ، إذا لم يزل ينظر إليه، وأَنْقَدَ الشجرُ: أَوْرَقَ".[28]

وقسّم المؤرخ ابن خلدون علم التاريخ إلى ظاهر و باطن ( ت : 808 هـ ) حيث يقول في هذا الصدد : " هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام و الدول ، و السوابق من القرون الأول ، تنمو فيه الأقوال وتضرب فيها الأمثال . و في باطنه **نظر** ، و **تحقيق** ، و **تعليل** للكائنات و مباديها **دقيق** ، و **عِلم** بكيفيات الوقائع ، و أسبابها **عميق**."[29]

أما باعتباره مُركَّبًا إضافيا ،فقد عَرَّف الباحث جميل مُوسى النجَّار النقد التاريخي بأنه:"عملية تقويم النصوص التاريخية ؛ بالتّحَرِّي عن أصالة النصِّ ،

و حقيقته،و مَدى مُطَابَقَتِهِ،و مدى دِقَّتِهِ،و صِدْقِهِ في نقل الأحداث التاريخية ." [30]

و من خلال هذه التعاريف يتضح ارتباط المعنى اللغوي العام للنقد ، بالمعنى الاصطلاحي للنقد التاريخي، فالنقد في الاصطلاح يعرّف بانه تمييز ومن يقوم بهذه العملية يسمى ناقداً، و الذي ينبغي أن يتسم بالدقة و التركيز.

أما فيما يتعلق بالتعريف بكتاب "البداية والنهاية" ، فيعتبر موسوعة تاريخية شاملة تؤرخ لبدايات الخلق، ثم الأنبياء، ثم السيرة التي استغرقت نحواً من ستة أجزاء من الكتاب حسب طبعة مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر[31]، التي تضم (21) جزءاً بما فيها جزء الفهارس والجزآن (19،20) وقد خُصِّصَا "للفتن والملاحم وأشراط الساعة".

ولقد مَرَّ تصنيف الكتاب بمرحلتين، الأولى: مرحلة الاختيار والانتقاء من التواريخ المتقدمة كتاريخ أبي شامة وتاريخ البرزالي حيث صرّح ابن كثير بهذه فقال: (وكان فراغي من الانتقاء من تأريخه في يوم الأربعاء، العشرين من جمادي الآخرة من سنة 751هـ .أما المرحلة الثانية: فكانت ما أَضافه ابن كثير، بدءً بالسيرة النبوية وملحقاتها من الشمائل والدلائل، وكذلك ما دوَّنه من حوادث التاريخ الذي كان شاهداً عليها إلى مشارف سنة (768هـ) على ما وجد من المطبوع، أو إلى قبيل وفاته (774هـ). و تضمن قسم السيرة النبوية على مادة نقدية غزيرة على مستوى الإسناد و المتن ، و سنبين خلال هذا البحث أبرز المعايير النقدية التي احتكم إليها الحافظ ابن كثير في تمحيص متون الروايات التاريخية الخاصة بقسم السيرة النبوية .

**ثانيا : الجانب المنهجي و التطبيقي لنقد متون[32] رو ايات السيرة النبوية :**

يعد نقد محتوى الرواية التاريخية أهم صور النقد التاريخي الإسلامي ، فهو يوضح الجهد الذي مارسه الناقد ، و يعكس تميزه ، واستيعابه لعلوم كثيرة،وتجاوزه لدور الناقل الذي تغيب شخصيته وراء الأسانيد والمتون . حيث راجع ابن كثير متون مرويات كثيرة مُبْدِياً ملحوظاته عليها.و تأتي تعقيبات الحافظ ابن كثير لمتون هذه الروايات وغيرها تجسيداً لمقولة: صحة السند ليست موجبة لصحة الحديث،و يقول ابن كثير نفسه عن هذا الأمر: (والحكم بالصحة أو الحسن على الإسناد لا يلزم منه الحكم بذلك على المتن؛ إذ قد يكون شاذاً أو معللاء) [33]

و لقد راجع ابن كثير متون المرويات والأقوال في موضوع السيرة آخذاً بعين الاعتبار الخطوات التي كان العلماء يقومون بها وهم ينقدون النصوص والمرويات.و من هذه القواعد عرض المتن على القرآن الكريم ثم على السنة المتواترة ثم على الإجماع ثم على العقل.كما تجدر الإشارة إلى أن ممارسة علماء المشرق الإسلامي للنقد الحديثي، وقراءة النصوص النقدية لعلماء الجرح و التعديل المتقدمين، واستظهارها، شكَّلت عوامل جوهرية مكَّنت العلماء الراسخين من رد روايات وأحاديث بالنظر إلى المروي وألفاظ الحديث.و من الأقوال المهمة في هذا المجال ما قاله العلامة ابن دقيق العيد (ت:702هـ ): "وأهل الحديث كثيراً ما يحكمون بذلك . أي بالوضع . باعتبار أمور ترجع إلى المروي وألفاظ الرسول –صلى الله عليه و سلم-، وحاصله يرجع إلى أنه حصلت لهم لكثرة محاولة ألفاظ الرسول –صلى الله عليه و سلم- هيئة نفسية أو ملكة يعرفون بها ما يجوز

من ألفاظ الرسول ρ وما لا يجوز أن يكون من ألفاظه[34]، ويعد ابن القيم ( ت : 751 هـ). وهو ممن نهل من المدرسة الحديثية نفسها التي نهل منها ابن كثير .من أوائل العلماء الذين أصَّلوا بعض القواعد التي يمكن بواسطتها نقد متن الحديث[35].و سننتقي أربع قواعد نقدية ارتكز عليها الحافظ ابن كثير في نقد روايات السيرة النبوية،مستندا في ذلك إلى نماذج تطبيقية .

القاعدة الأولى وهي العرض على القرآن الكريم ؛ بحيث أن الحافظ ابن كثير لم تقتصر تعقيباته ومراجعاته على ما يرويه كتاب السيرة والمغازي وما يذكره المؤلفون والمصنفون في هذين الفنين، بل انتقد وراجع متوناً وردت في مصنفات حديثية ومنها نصوص وردت في البخاري ومسلم أو أحدهما، كرواية شريك بن عبد الله في الإسراء[36]، وما رواه مسلم من حديث المعتمر بن سليمان عن أبيه أن المسلمين كانوا يوم هوازن (حنين) ستة آلاف، وإنما كانوا اثني عشر ألفاً[37]، ورواية أبي هريرة في بدء الخلق[38] والتي أخرجها مسلم[39] وغيره، وهي رواية يرى بعض الأئمة أنها متلقاة عن كعب الأحبار ومما يقدح فيها أنه ليس فيها ذكر خلق السموات وفيها ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام وهذا خلاف ما جاء في القرآن؛ لأن الأرض خلقت في أربعة أيام ثم خلقت السموات في يومين[40].

و القاعدة الثانية ، و تتمثل في عرض الرواية التاريخية على الأحاديث النبوية الصحيحة ، و من النماذج التطبيقية النقدية على ذلك ما ذكره في خاتم النبي _صلى الله عليه و سلم_ و انتقاده للروايات الواردة عن الواقدي ، و هذا عندما ذَكَر أمور مهمة وقعت بعد وفاته و قبل دفنه عليه الصلاة و السلام ، حيث قال الحافظ ابن كثير : " و ذَكَرَ الواقدي عن شيوخه : قالوا : و لَمَّا شُكَّ في موت النبي _صلى الله عليه و سلم _ فقال بعضهم مات ، و قال بعضهم لم يَمُت . وَضَعَت أسماء بنت عميس يدها بين كتفي رسول الله _صلى الله عليه و سلم _ فقالت : قد تُوُفِّيَ رسول الله _صلى الله عليه و سلم _ و قد رُفِع الخاتم من بين كتفيه . فكان هذا الذي قد عُرِف به موته . " [41]

وعقَّب الحافظ ابن كثير على الرواية بقوله : " هَكذا رواه الحافظ البيهقي في كتابه (دلائل النبوة ) من طريق الواقدي ، و هو ضعيف ، و شيوخه لم يُسَمَّوا ، ثم هو منقطع بكل حال ، و مخالف لِمَا صَحَّ ، و فيه غرابة شديدة ، و هُوَ رَفْعُ الخاتم . و قد ذَكَرَ الواقدي و غيره في الوفاة أخبارًا كثيرة فيها نكارات و غرابة شديدة ، أضربنا عنها صفحًا ؛

لضعف أسانيدها و نكارة متونها ، و لا سيما ما يُورِدُه كثير من القصاص المتأخِّرين و غيرهم ، فكثير منها موضوع لا محالة ، و في الأحاديث الصحيحة و الحسنة المروية في الكتب المشهورة غُنْيَةٌ عن الأكاذيب ، و ما لا يُعْرَفُ سنده . " [42] و يبرز الباحث المحقق أكرم ضياء العمري الجانب النقدي الإسنادي المتعلق بأسانيد الواقدي و الذي من أجله تم تضعيفه ، حيث ساق هذا الأخير روايات كثيرة من طرق رجال لا توجد لهم تراجم في كتب الرجال؛وهذا محمول على أمرين – حسب نفس المحقق _ :

أحدهما ؛ أن أسانيد الواقدي فيها رجال ليست لهم رواية في الحديث ، لذلك لم تترجم لهم كتب الرجال .

أما الآخر ؛ يُحْمَل على أن رجال أسانيده مُخْتَلَقُون وَضَعَ أسماءهم الواقدي أو بعض شيوخه ، و من هنا يتضح سبب اتهام المحدثين النقاد له بالكذب و الوضع ، و حكمهم عليه بأنه متروك .[43] أو أن الأمرين يصدقان عليه.

و أما لقاعدة الثالثة ؛ فتتمثل في قاعدة تاريخ التشريع ، ونجد من خلال روايات السيرة النبوية كثير أمثلة تدل على متابعته لتواريخ التشريعات وما نزل من الأحكام، ويهمنا هنا أن نذكر أن ابن كثير بحكم ثقافته في هذا الجانب نقد بعض المتون مستخدماً معرفته بتواريخ نزول هذا الحكم أو ذاك. فقد ناقش ابن كثير رواية ابن هشام في خبر قدوم الأعشى الشاعر على رسول الله –صلى الله عليه و سلم- في سياق أحداث العهد المكي، ومما ناقشه ابن كثير في محتوى الرواية أن أهل مكة ذكروا له أنه يحرم الخمر، ومعلوم أن تحريمها بالمدينة بعد وقعة بني النضير. ووجَّه بديلا لإيرادها فقال معقبا على ابن هشام :" وكان الأنسب والأليق بابن هشام أن يؤخر ذكر هذه القصة إلى ما بعد الهجرة ولا يوردها هنا " [44]. وكذلك استدعى ابن كثير تاريخ تحريم الكلام في الصلاة وتاريخ فرض الحجاب عند مناقشته لبعض الروايات[45]، ورد ابن كثير رواية من روى أن ملكاً من وراء الحجاب أذَّن ليلة الإسراء برسول الله –صلى الله عليه و سلم-، وأن هذا الملك قَدَّم النبي –صلى الله عليه و سلم- فأَمَّ بأهل السماء ومنهم آدم ونوح؛ لأنَّهُ لو كان النبي سمع الأذان ليلة الإسراء لأوشك أن يأمر به بعد الهجرة في الدعوة إلى الصلاة[46].ولا جدال في أن ابن كثير هنا وضع نصب عينيه ما ورد من روايات في تشريع الأذان بعد الهجرة وقد ورد فيها أنَّ المسلمين هموا أن يتخذوا ناقوساً ليضرب به للناس لجمعهم عند الصلاة، كما ورد أنهم تشاوروا في المناداة للصلاة[47].

و فيما يخص القاعدة الرابعة فهي معيار الثابت من التاريخ ؛ حيث توجد حقائق ومعلومات تاريخية ثابتة، مشهورة مقررة عند كُتَّاب السير والمغازي وغيرهم من المحدثين والمؤرخين يستعملها الحافظ ابن كثير لردّ روايات وأقوال تنطق بضد ما يفهم من تلك الحقائق ، و من النماذج النقدية على ذلك ما عقَّبَ به على رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: إنما قرن رسول الله –صلى الله عليه و سلم- في حجة الوداع خشية أن يُصدَّ عن البيت، قال ابن كثير: هذا حديث غريب سنداً ومتناً، ثم انبرى يناقش متنه قائلاً: "من الذي يصده عليه الصلاة والسلام وقد أظهر الله الإسلام وفتح البلد الحرام وقد نودي برحاب منى أيام الموسم الماضي أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان، وقد كان معه عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع قريب من أربعين ألفاً"[48]. وعَدَّ ما ورد في رواية المعتمر بن سليمان عن أبيه عن السميط عن أنس من أن عدد المسلمين يوم حنين كانوا ستة آلاف، وأنهم حاصروا الطائف (40) ليلة من غرائب هذه الرواية والصواب أن عدد المسلمين (اثنا عشر ألفاً) كما في الروايات المشهورة وأن حصار الطائف لم يصل إلى شهر بل كان دون العشرين ليلة[49].و من النماذج على ذلك أيضا كتاب وضع الجزية عن يهود خيبر ووقف ابن كثير كما وقف غيره من العلماء عند الكتاب المزعوم بأن رسول الله

–صلى الله عليه و سلم- وضع الجزية عن اليهود الخيابرة.ويذكر ابن كثير أنَّه وقف على الكتاب فإذا هو مكذوب فإن فيه شهادة سعد بن معاذ وقد مات قبل خيبر وفيه شهادة معاوية بن أبي سفيان ولم يكن أسلم يومذاك، وفيه وضع الجزية ولم تكن قد شرعت بعد[50].وهكذا يضع ابن كثير يده على تناقضات يحملها هذا الكتاب المزعوم مع حقائق تاريخية مقررة مما يؤكد زيف الكتاب.

و القاعدة الخامسة و الأخيرة ، و تتجسد في معيار صريح المعقول ؛ ففي أثناء مراجعته لبعض المتون والأقوال يقوم ابن كثير بمحاكمة عقلية لبعض النصوص، التي يرد في متونها ألفاظ وعبارات لا تدخل في دائرة التصور. وتأتي مراجعته تلك في ضوء ما اكتسبه من علوم وفي ضوء مسلمات عقلية يؤكدها الحس والمشاهدة ، حيث أخضع الحافظ ابن كثير عدداً من المتون تحت دائرة المراجعة العقلية، والتساؤل الذي يفضي إلى الرد والاستبعاد، ففي فصل "ذكر أول من أسلم ثم ذكر متقدمي الإسلام من

الصحابة"يقول عن الحديث المنسوب إلى علي τ: "أنا الصديق الأكبر صليت قبل الناس بسبع سنين"؟. الحديث منكر بكل حال، ولا يقوله علي

–كرم الله وجهه- وكيف يمكن أن يصلي قبل الناس بسبع سنين هذا الأمر لا يتصور أصلاً[51] وحيث إن مجموعة من المصنفين في الخصائص والمعجزات انساقوا وراء الأحاديث غير الصحيحة والموضوعة، فهناك مجموعة روايات قام الحافظ ابن كثير بتفنيدها سنداً ومتناً، وكان من وسائله النقدية المناقشة العقلية وإثارة التساؤل حول الرواية وهذا ينطبق على رواية رد الشمس بعد مغيبها لعلي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- بدعوة النبي –صلى الله عليه و سلم-، حيث تطرق إليها في باب (دلائل النبوة الحسية).

وبعد ما ذكر ابن كثير أن الحديث ضعيف ومنكر من جميع طرقه، قال: "ومثل هذا الحديث لا يقبل فيه خبر واحد إذا اتصل سنده؛ لأنه من باب ما تتوافر الدواعي على نقله فلا بد من نقله بالتواتر والاستفاضة لا أقل من ذلك، ونحن لا ننكر هذا في قدرة الله تعالى"[52].

ومما أورده ابن كثير التساؤل التالي إزاء متن الرواية المتضمن أن الموجب لرد الشمس هو فوات صلاة العصر على علي τ: "أيجوز أن ترد الشمس لأبي الحسن حين فاتته صلاة العصر ولا ترد لرسول الله –صلى الله عليه و سلم- ولجميع المهاجرين والأنصار وعلي فيهم حين فاتتهم صلاة الظهر والعصر والمغرب يوم الخندق؟ وأيضاً مرة أخرى لرسول الله –صلى الله عليه و سلم- والمهاجرين والأنصار حين قفل من غزوة خيبر، فذكر نومهم عن صلاة الصبح وصلاتهم لها بعد طلوع الشمس فلم يرد الليل على رسول الله –صلى الله عليه و سلم- وعلى أصحابه-عليهم السلام- .[53]

**الخاتمة :**

و في الأخير يمكننا الخروج بجملة من الاستنتاجات نوضحها فيما يلي :

أسهم الرصيد العلمي المتنوع ، وحذاقة صنعة النقد الحديثي لدى الحافظ المؤرخ ابن كثير في الإفادة منهما في نقد متون السيرة النبوية .كما اتضح لنا أنّ ابن كثير راجع متوناً كثيرة في مجال السيرة النبوية آخذاً بعين الاعتبار الخطوات التي كان علماء الحديث يقومون بها وهم ينقدون النصوص والمرويات، ومما برز عند ابن كثير من معايير في باب

نقد المتن استدعاء تاريخ التشريعات وزمن نزول الأحكام والمحاكمة العقلية للمتون.كما برز من خلال البحث تهافت دعاوى المستشرقين القائلة بأن المنهج النقدي الإسلامي لم يتجاوز حدود الإسناد في النقد .كما أكّدت النماذج و الشواهد التطبيقية دقة الحافظ ابن كثير ، وشدة تحريه مع جودة في عرض الموضوع ،وتمكن من الاحتكام إلى الأدلة النقلية والعقلية في النقد والتحرير، وغير ذلك من مميزات منهجه. كما نلاحظ أن صبغة موسوعية الرجل جعلت منه مُلماً بما يَرِد عليه من البحوث والمواضيع، و التي كان من أبرز محطاتها حفظ القرآن الكريم، وجمع متون الأحاديث والآثار وَسَبَرَ رواتها، و المعرفة بما نقله علماء التفسير والحديث والتاريخ والسِيَر،و كل ذلك مكنه للخوض في مختلف المواضيع و من أبرزها السيرة النبوية .

**الهوامش:**

1. _ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة، دار الكتب الحديثة ، د . ت ، ج1، ص 373، جلال الدين السيوطي : الذيل على تذكرة الحفاظ ،ص 361.
2. _ **بُصْرَى** هي مدينة تاريخية تتبع محافظة درعا في الجمهورية العربية السورية حيث تبعد 40 كم عن مركز مدينة درعا وحوالي 140 كم عن دمشق ، **المجدل** هي قرية سورية تقع في محافظة السويداء وعلى بعد 12 كم إلى الشمال الغربي منها الحسيني : ذيل على العبر ، ص 57، و أحمد شاكر : عمدة التفاسير عن الحافظ ابن كثير ، الطبعة الثانية ، دار الوفاء ، جمهورية مصر العربية ، 1426 هـ / 2005 ، ج 1 ، ص 22؛ ابن ناصر : الرد الوافر المكتب الإسلامي ، مصر ، 1329 هـ ، ص 48 وهكذا ورد في المطبوع من ابن كثير : البداية و النهاية، المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر ، المملكة العربية السعودية ، ج 14 ، ص 31.
3. _ كما في حوادث سنة (701هـ) قال: (وفيها ولد كاتبه إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي) ابن كثير : المصدر السابق ، ج 14، ص 21.
4. _ ابن كثير : المصدر السابق ،ج 18، ص 42؛ ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني : المصدر السابق ،ج 1 ، ص 399-400.
5. _ عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن ذؤيب الأسدي، كان فقيهاً عارفاً بالمذهب ناقلاً له، له حلقة بالجامع الأموي توفي بدمشق سنة (726)هـ ابن كثير : المصدر السابق ، ج9، ص397
6. _ هو إبراهيم ببن عبد الرحمن بن إبراهيم شيخ الشافعية في زمانه، الدمشقي المولد والدار والوفاة، أخذ الفقه عن أبيه تاج الدين والعربية عن عمه، عذب العبارة طلق اللسان برع وتقدم في العلوم، تخرج به الفضلاء وأذن لجماعة في الافتاء، يقول عنه ابن كثير: لم أر شافعياً من

مشايخنا مثله، توفي سنة (730ه)، ابن حجر : المصدر السابق ، ج1، ص235، ابن كثير : المصدر السابق، ج14، ص146.

7. _ يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف بن علي بن عبد الملك بن أبي الزهر، أبو الحجاج المزي ابن الزكي القضاعي الكلبي، خاتمة الحفاظ وناقد الأسانيد والألفاظ، اعجوبة الزمان وحافظ العصر والأوان، انتهت إليه رئاسة الحديث، تخرج به جماعة من الكبار كالبرزالي والعلائي وابن كثير، له مصنفات أبرزها (تهذيب الكمال في أسماء الرجال)، توفي سنة (742ه) . الذهبي : تذكرة الحفاظ، عبد الرحمن بن يحي المعلمي ، دائرة المعارف العثمانية ، ج4، ص1498 ، ابن حجر : المصدر السابق ج5 ، ص233 ؛ عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي :الدارس في تاريخ المدارس ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1990 – 1410 هـ ، ج1 ،ص94-113 ؛ تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، المحقق: محمود محمد الطناحي - عبد الفتاح الحلو، مطبعة فيصل عيسى البابي الحلبي ، جمهورية مصر العربية ،1964 - 1383 ، ج10،ص 395.

8. _ هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن قايماز الذهبي التركماني الأصل، أحد الأئمة الاعلام المؤرخ الفقيه، سمع وألف وصنف وانتفع به وبمؤلفاته، ولي كثيراً من مدارس الحديث والقرآن قال السيوطي عنه: الناس عيال على أربعة (وذكره فيهم) توفي سنة (748ه) ابن حجر : المصدر السابق ، ج3 ، ص426، ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، المحقق: عبد القادر الأرناؤوط - محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، سوريا ، 1406 - 1986 ،ج6، ص6_153، ابن كثير : المصدر السابق ، ج14 ، ص225 .

9. _ أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام، سمع الحديث وأكثر بنفسه من طلبه ونظر في الرجال وبرع في التفسير وفاق الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب، ولم يلتزم بمذهب بل يقول بما صح دليله عنده، وبلغ درجة الاجتهاد ومصنفاته وفتاويه تملئ سمع الزمان توفي سنة (728ه) ابن رجب الحنبلي : ذيل طبقات الحنابلة ، مكتبة العبيكان ، المملكة العربية السعودية ، ج2 ،ص387-390 وله ترجمة عند كثيرين.

10. _ كمال الدين محمد بن علي بن عبدالواحد بن عبدالكريم الأنصاري الدمشقي ابن الزملكاني شيخ الشافعية بالشام، وانتهت إليه رياسة المذهب برع وحصل وساد على أقرانه، درس بعدة مدارس في دمشق وحلب، وقد أثنى عليه ابن كثير، توفي سنة (727ه) . ابن كثير : المصدر السابق ، ج 9 ، ص401 ، ابن حجر : المصدر السابق ، ج : 4 ، ص : 192.

11. _ أبو محمد القاسم بن محمد البرزالي مؤرخ الشام الشافعي، كتب تاريخاً ذيل به على تاريخ أبي شامة، توفي سنة (739ه) وهو محرم له أكثر من ألف شيخ، وقف كتبه بدار الحديث السنية. ابن كثير:المصدر السابق ج4 ، ض183 ، ابن حجر :المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 321.

12. _ الذهبي : المصدر السابق ، ج : 4 ، ص 290.

13. _ نفسه ، ج : 4 ، ص :290.

14. _ الذهبي : المعجم المختصر (رقم 86).
15. _ ابن حجر: المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 374.
16. _ محمد بن علي الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، دار الكتاب الإسلامي ج : 1 ، ص :153.
17. _ ابن العماد : المصدر السابق ، ج :6 ، ص :231 .
18. _ النعيمي : المصدر السابق ، ج 1، ص 36-37؛ ابن العماد :المصدر السابق ، ج 6 ، ص231 .
19. _ ابن حجر : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 46.
20. _ الكتاني : الرسالة المستطرفة، ط. الثالثة، مطبعة دار الفكر-دمشق، سوريا، 1383هـ، ص175.
21. _ ابن كثير : الباعث الحثيث ، المصدر السابق ، في المقدمة ،ص6.
22. _ في أول المسند للإمام أحمد بن حنبل-تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، ج 1 ،ص 04 .
23. _ في أول كتابه (مولد الرسولρ ) لابن كثير ، ص5.
24. -ابن كثير : المصدر السابق ، ج 18 ، ص 699 ، 759 .
25. _ ابن حجر : المصدر السابق ،ج1 ، ص374، السيوطي : (ذيله-361)، النعيمي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 37؛ الشوكاني : المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 153؛ ابن العماد : المصدر السابق ، ج 6 ، ص 232.
26. _ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر ، ج 11 ، ص 124، ابن حجر : المصدر السابق ، ج 3 ، ص :397.
27. - ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، بيروت ، لبنان ، دار الفكر ، ج 5 ، ص 467.
28. - ابن منظور جمال الدين بن مكرم : لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، د.ت ، ج : 03 ، ص : 426.
29. _ ابن خلدون : المقدمة ، تحقيق : خليل شحادة ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1988 م ، ص 06 .
30. _ النجّار جميل موسى: دراسات في فلسفة التاريخ النقدية ، الطبعة الأولى ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، العراق ، 2004 ، ص 95-96.
31. _ وهذه الطبعة حققها عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، القاهرة، ط1، 1417هـ، وفي تقدير الباحث فإن هذه الطبعة قد عنيت بالكتاب خاصة قسم السيرة تحقيقاً وتخريجاً على نحو لم يتوافر في سابقاتها، ومن طبعات الكتاب السابقة طبعة دار السعادة بالقاهرة، 1348هـ، في (14) جزءاً، كما ظهرت طبعات أخرى للكتاب في بيروت، ومنها طبعة دار المعرفة بتحقيق، عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غازي بيضون، ط1، 1416هـ، وطبعة المكتبة العصرية، بتحقيق عبد الحميد هنداوي، ط1،

1421هـ، للمزيد انظر: طبعات كتاب البداية والنهاية، في مقدمة تحقيق البداية والنهاية بدار هجر، ص34-39.

32. _ المتن: هو غاية ما ينتهي إليه السند من الكلام وهو النص المروي، راجع السيوطي: جلال الدين السيوطي (ت:911هـ): تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق: عزت علي عطية وموسى محمد علي، دار الكتاب الحديث، القاهرة ، جمهورية مصر العربية ، (د،ت) ، ج1، ص 44.
33. _ ابن كثير : الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث، الرياض، دار الهدى (د،ت)، ص:17.
34. _ ابن دقيق العيد : الاقتراح في بيان الاصطلاح، تحقيق عامر حسن صبري، دار البشائر بيروت،لبنان ، ط1، 1417، ص:228.
35. _ ابن القيم : نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول، تحقيق: حسن سماحي سويدان، بيروت، دار القادري، ط1، 1411، وهذا الكتاب لابن القيم هو المشهور بالمنار المنيف في الصحيح والضعيف. بكر أبو زيد: ابن القيم حياته وآثاره، ، مكتبة المعارف، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، 1405هـ ، ص194.
36. _ ابن كثير : المصدر السابق ، ج 4 ، ص 275، وشريك بن عبد الله بن أبي نمر تابعي صدوق، قال ابن معين: لا بأس به، ووهاه ابن حزم لأجل حديث في الإسراء، الذهبي: ميزان الاعتدال، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1995 ، ج 2 ، ص 269-270.
37. _ ابن كثير : المصدر السابق ، ج 7 ، ص 90-91؛ راجع مسلم: الجامع الصحيح، المكتبة الإسلامية، تركيا (د،ت)،ج 2،736، حديث رقم (1059) وهناك رواية أخرى عن مسلم تناقض رواية المعتمر بن سليمان عن أبيه عن السميط عن أنس وفيها أنهم كانوا عشرة آلاف ومعهم الطلقاء، مسلم:المصدر السابق ، ج 2 ، ص 736، كتاب الزكاة.
38. ابن كثير : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 32 .
39. _ مسلم : المصدر السابق، ج4، ص2149، كتاب صفات المنافقين رقم الحديث (2789).
40. _ ابن كثير : المصدر السابق ، ج1 ، ص 33 ؛ ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، 2004 م ، ج 08 ، ص 18 ، 19 .
41. _ ابن كثير : المصدر السابق : ج 03 ، ص 346 .
42. _ ابن كثير : المصدر السابق ، ج 03 ، ص 346 .
43. - العمري أكرم ضياء : المجتمع المدني في عهد النبوة ، الجامعة الاسلامية ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، 1983 م ، ص 44 .
44. ابن كثير: البداية والنهاية ، ج 4 ، ص 253-254.
45. ابن كثير : الفصول في سيرة الرسول ρ ، ص183.
46. _ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 4 ، ص 576.
47. _ إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية، ص: 150، ابن حجر: فتح الباري، دار طيبة ، المملكة العربية السعودية ، 2005 ، ج2،ص:77-78.

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

48. _ ابن كثير: المصدر السابق ، ج7 ، ص 479.
49. _ نفسه :ج 7، ص 90-91.
50. _ابن كثير : المصدر السابق ، ج 6، ص 355-356، راجع أيضاً: ابن القيم: نقد المنقول، ص:90-92.
51. _ نفسه : ج 4 ، ص 66.
52. _ ابن كثير: المصدر السابق ، ج 8 ، ص 569.
53. _ نفسه :ج 8 ، ص 570.